﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ مِنَ الوعيدِ إلى وصفِ الوعيدِ

لمّا ذُكِر في الآية السّابقة الإيعادُ بالسّعير في قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾ [الفرقان: 11]؛ أخبر هنا أنّ للنّار معهم حالًا منَ الشِّدّة والحِدّة، بالتّغيّظ والزّفير، وهما من خصائص السّعير المذكور، وبذلك انتقل من حالة اليأس منِ اقتناعهم إلى وصف السّعير الذي أُعِدَّ لهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَأَتۡهُم﴾: (رأى) أصلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَيْنٍ أو بَصيرَةٍ؛ فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمرِ، وجَمعُهُ: الآراءُ[2]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئيِّ، والرَّأْيُ: اعتقاد النَّفس أحدَ النَّقيضيْن عن غلبة الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرَى في المنام[3]، والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ، والمُراد بالرُّؤية في الآية: البَصريّة.

2) ﴿تَغَيُّظًا﴾: (غيظ) أصلٌ يَدُلُّ على كَرْبٍ يَلْحَقُ الإنْسانَ مِنْ غَيْرِهِ[4]، التّغيّظُ: مصدرٌ قياسيٌّ لفعل (تغيّظ) الخماسيّ، ووزنُه (تفعَّل) بفتح التّاء وضَمّ العين المُشدّدة[5]، والتّغيّظ: إظهارُ الغَيظ، والغَيْظُ: هو أَشدّ الغضبِ، وعلامتُه: الحرارةُ التي يجدها الإنسانُ من فَوَران دَم قلبِه[6]، فحقيقةُ الغيظ تظهر في حال الفوران والغَلَيان الذي يعتلج النّفوسَ ويُسيطر عليها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 332.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(3) الرّاغب، المُفرَدات، والسّمين، عُمدةُ الحُفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيظ).
(5) صافي، الجدول: 9/ 312.
(6) الرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غيظ).

3) ﴿وَزَفِيرًا﴾: (زفر) أَصْلانِ: أَحَدُهُما يَدُلُّ على حِملٍ، والآخَرُ على صَوْتٍ مِنَ الأَصْواتِ[1]، الزَّفيرُ: تَرَدُّد النَّفَس حتّى تنتفخَ الضُّلوعُ منه[2]، والزَّفر والزّفير: أنْ يَملأ الرّجلُ صدرَه غمًّا، ثمّ هو يزْفِر به[3]؛ أيْ: يرمي بِنَفَسِه للخارج، وزفير النّار في الآية: كنايةٌ عن هذا المعنى، وهو اغتمامُها واكترابُها بأهلها، ولذا ناسَبَ اقترانُه بالتّغيّظ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّنتِ الآياتُ وصفًا من أوصاف النّار في حالها مع أهلها منَ المشركين السّاخرين على الرّسول ﷺ، والمُتَنقّصين من مقامه الشّريف؛ بناءً على معايير الدّنيا والمادّة الزّائلة، فأخبر أنّ هذه النّار يخلق اللّهُ لها انفعالًا وشعورًا منَ الغضب وشِدّة الفوران والغَليان والاستعار، إذا رأتِ الدّاخلين فيها من بعيدٍ، فبِمُجَرّد أن يَلوحوا بأشخاصهم لها، وتلمَحهم وتعرفهم، يظهر عليها هذا الانفعالُ السّاخِطُ عليهم، من إظهار الغَيظ وتنفيس الزّفير؛ اكترابًا عليهم، وإيعادًا لهم، واغتمامًا منهم[5].

كلُّ مقامٍ يُنادي عـلى أهـلِـهِ اللّائقين به

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ ممّا قبلها:

جملةُ ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ شرطيّةٌ في موضعِ نصبٍ صفةً لـ ﴿سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: 11] في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: 11]؛ لأنّ السّعير مؤنّثٌ في معناه وهو النّار؛ ولذلك لم توصَلِ الجملةُ بالعاطف، وفُصِلت عمّا قبلَها؛ لكمال الاتّصالِ بينَ الصّفةِ والموصوفِ، والوصف مِن موجباتِ الفَصْلِ[6].

النّـارُ مخلوقٌ لله؛ فإذا شاءَ خَلَقَ لها سمعًا وبصرًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيظ).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (زفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زفر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 409، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/ 13.
(5) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 126.
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 461.

دلالةُ التّصدير بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إن):

تصديرُ جملةِ الوعيد في قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ بـ ﴿إِذَا﴾، دونَ (إن)؛ للدّلالة على تحقيق الوعيد؛ إذْ لا يصحّ تناول الأخبارِ الغيبيّة بالشّكّ والاحتمال، ولذا لم يُعبّر بـ(إنْ).

دلالةُ سَوْقِ الوعيدِ بأسلوبِ الشّرطِ:

النّـارُ تَشْعُـر بأهلِها فتـزدادُ عليهم إحراقًا

سياقُ جملةِ الوعيدِ بأسلوبِ الشّرطِ في قولِه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ لإثباتِ المُطاوعَةِ بينَهم وبين مادّة العذابِ النّارِ، وهذا من تصاوير التّرهيب المُفجِعة، أنْ يكون للنّار فِعلٌ مُعلَّقٌ على فِعلِ المُعذَّبين فيها، ففِعْلُ النّارِ بالتّغيُّظ والزّفير مشروطٌ برؤيتها لهم، فإذا لاحوا لها بأشخاصهم، لاحَتْ لهم بغيظها وزفيرها، ومن طبائع الأجزية أن تُساق بأسلوب التّعليق؛ كأسلوب الشّرط؛ لأنّ الجزاء بالشّيء مُعلَّقٌ على سببه منَ العمل، وحيثُ كانت الآيةُ في لونٍ من ألوانِ الجزاءِ، سيقتْ بهذا الأسلوبِ لإيقاعِ التّعليقِ بينَ الأجزيَةِ وأسبابِها منَ الأعمالِ.

دلالةُ تأنيثِ الفعلِ في ﴿رَأَتْهُم﴾:

تعديدُ النّعوتِ في مقامِ الـذّمّ أبلغُ فيه وأتمّ

تأنيثُ الضّمير في فعلِ الرّؤية في قولِهِ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ بعد قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾؛ لعَوْدِه على معنى السّعير دونَ لفظِه؛ لأنّ (السَّعير) مُذكّر ومعناه مؤنّث؛ وهو النّار، فعاد الضّمير إلى النّار؛ لأنّها ماهيّةُ العذاب، فيتعلّق باسمها كلُّ وصفٍ من أوصافها، والسّعير صفةٌ من صفات النّار، فلمّا أراد أنْ يُثنّيَ بعدَه بوصفٍ آخَر؛ أعاده إلى النّار لا إلى السّعير؛ قصدًا لتعديد الصّفات، ولِتتواردَ النّعوتُ على أصل الشّيء الموصوف، فلا يَصِف وصفًا بوصف، وهذا أحسنُ في إفادة التّعديد والإلفات إلى ذات الموصوف بكثرة نُعوته، وتعديدُ النُّعوتِ أبلغُ في الذّمّ.

نُكْتَةُ نسبةِ الرّؤية إلى النّارِ:

المُستَكْرَهُ المَخوفُ لا يُتَطلَّعُ إليه

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (إذا رأوها)، بإسناد فعل الرّؤية إليهم؛ بل نسبَ الرّؤيةَ إلى النّار: ﴿رَأَتْهُم﴾؛ للإيذان بأنّ التّغيّظ والزّفير منها؛ لِهَيَجان غضبِها عليهم عند رؤيتها إيّاهم[1]، وأيضًا: مراعاةً لقوله: ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ فأشارَ بالإسناد إليها أنّها تراهم وهم في مكانٍ بعيدٍ عنها، فلا يَلْزَم أن يكونوا رأوها، فلهذا الاحتمالِ لم يُسنِد الرّؤيةَ إليهم، ويُقوّي هذا قولُه: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا﴾، والسّمعُ قد لا يتزامن مع الرّؤية؛ بل قد يكون أسبقَ منها، لا سيّما في المواقع البعيدة، فأنتَ تسمع الأصواتَ منها قبلَ الاطّلاع عليها، وأيضًا في نسبة الرّؤية إلى النّار إشارةٌ إلى أنّها لشِدّة اضطرامها وغليانها صارت مُتطلِّعةً إليهم، ترى الكُفّارَ وتطلبُهم إليها وتتغيّظ عليهم[2]، وفيه من شِدّة التّرهيب ما لا يخفى، وفي عدم إسناد الرّؤية إليهم إشارةٌ إلى أنّ النّار مُسْتَكْرَهَةٌ مرهوبةٌ، والمُستَكْرَه المَخوف لا يُتَطلَّع إليه، فلا جَرَمَ لم ينسبِ الرّؤيةَ إليهم.

قد يكونُ الرّائي الملائكة

ويجوز أن يكون الرّائي خَزَنَةَ جهنّم، وملائكتُها أطلقوا منافذَها؛ فانطلقت ألسنتُها بأصوات اللّهيب، كأصواتِ المُتَغيّظِ وزفيرِه، فيكون إسنادُ الرّؤيةِ إلى النّار مجازًا عقليًّا[3].

بلاغةُ استعارةِ الرّؤيةِ للنّارِ:

أَهلُ النّارِ للنّارِ خُلِقوا

في جَعْلِ النّارِ تَرى في قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ تشبيهٌ للنّار بالذّوات الحَيَّة التي يكون لها حاسّةٌ وإرادةٌ، فأثبتَ للنّار ذلك على سبيل الاستعارة المَكنيّة، فحَذَفَ المُشبّهَ به، وأثبتَ للمشبّه ما يدلّ على المُشبّه به، ورمز إليه بشيء من صفاته ولوازمه، وهو الرّؤية التي

(1) مكّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5184، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 206.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 437.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 332.

هي من لوازم الحياة؛ بل هي من لوازم الذّوات العاقلة؛ لأنّها رؤيةُ عِلم ويقين، كأنّه قيل: رأتهم فأبصرتهم فعرفَتْهم بسيماهم، فليس المُرادُ الإبصارَ المُجرّدَ فقط؛ بل الإبصارُ المُقترنُ بالتّمييز، وفائدة الاستعارة: تصويرُ أنّ النّار سيكون لها خصومةٌ مع أهلها المُقْتحِمين فيها، حتّى إنّها ترقبهم من بعيد، وتترصّد لهم ترصُّدَ الخَصْم حين يريد قَنْصَ عدوّه والغدرَ به، والاستعارةُ مرشّحة ذُكِرَ فيها ما يُلائِمُ المُشبّهَ به المحذوفَ[1].

الاستعارةُ التّصريحيّةُ في ﴿رَأَتْهُم﴾:

يصِحّ أن تجريَ الرّؤيةُ على الاستعارة التّصريحيّة، بجعل رؤيةِ النّار لهم هي المُشبّه به، فصَرّح النّظمُ بالمُشبّه به، وحذفَ المُشبّه، وهو رؤية الكافرين للنّار؛ كأنّه جعل رؤيةَ الكافرين للنّار كأنّها رأتهم، وذُكِر في النّظم ما يُلائِمُ المُشبّهَ، وهو الرُّؤية؛ فالاستعارةُ مُجَرّدةٌ[2].

الاستعارةُ بابٌ واسعٌ، محكومٌ بضبطِ التّصوّرِ، وجودةِ التّنزيلِ

معنى ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن مَّكَانٍ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ﴾ ابتدائيّة؛ أيْ: من جهة مكانٍ بعيدٍ؛ فالبُعد فيها مبتدأُ حالِهم، والضّيقُ مُنتهاه.

دلالةُ وصفِ المكانِ بالبعيدِ:

وَصْفُ المكانِ بالبعيد في قوله تعالى: ﴿رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ للإشارة إلى أنّ بُعْدَ ما بينها وبينَهم منَ المسافة حين رأتْهُم، خارجٌ عن حدود البُعد المعتاد في المسافات المعهودة، وفيه مَزيدُ تهويلٍ لأمرِها[3] وزيادةُ نكايةٍ بهم؛ لأنّ بُعْدَ المكانِ يقتضي زيادةَ المَشَقّة إلى الوصول، ويقتضي امتدادَ الرُّعب ممّا سمعوا طوالَ مُدّة المسير إلى مثواهم في جهنّم ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ بحسَبِ ما سيأتي[4].

إظهارُ الجفاءِ للبعيدِ إيذانٌ بالجَفْوةِ الأشدِّ إذا اقتَرَب

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 8/ 11.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 8/ 11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 332.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 206.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 333.

معنى اللّام في ﴿لَهَا﴾:

تطبيعُ النّارِ بصفاتِ العقلاءِ زيادةٌ في إرهابِ أهلِها

اللّام في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ للبيان، بيانِ الجهةِ المسموعة؛ أيْ: تعيينِ صوتِ التّغيّظ والزّفير لأيّ شيءٍ هو، كأنّه قيل: سمعوا منها، على معنى بيانِ مبدأِ الصّوتِ وجِهةِ السّماعِ[1].

مجازُ الحذفِ في ﴿لَهَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ مجازٌ بحذفِ المُضافِ على أحدِ وجوهِ التّفسير، والتّقدير: (سمعوا لأهلها، أو لخَزَنتِها)[2]، وفي الاكتفاء بالمَذكور منَ السّعة التَّعبيريّة ما لا يَخفى.

نُكْتَةُ التّعدّي بحرفِ الاختصاصِ دونَ غيرِه:

الاختصاصُ يُبينُ عن طبائعِ الأشياءِ

تعدية الفعلِ باللّامِ التي هي حرفُ اختصاصٍ، في قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾، ولم يَقُلْ: (سمعوا فيها)، أو (سمعوا منها)؛ للدّلالة على أنّ هذا الصّوت هو للنّار حقيقةً، وهو غير صوت المُعَذّبين فيها، فهو لها مختصٌّ بها[3].

دلالةُ الجمعِ بينَ الحقيقة والمجاز، أو عمومِ المجاز:

كلّما زاد المُعذَّبون في النّار زادَ اضطرامُها وسعيرُها

يصحّ أنْ يكون السّمع لصوتِ النّار وصوتِ المُعذَّبين فيها، على طريقةِ الجمعِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ، أو عمومِ المجازِ، وهو أن يُستعمل اللّفظُ في معنًى مجازيٍّ يندرجُ في المعنى الحقيقيّ، فسماعُهم لصوتِ المُعذَّبين فيها مجازٌ مندرجٌ في المعنى الحقيقيّ، وهو صوت النّار؛ لأنّ صوتَ المُعذَّبين فيها جُزءٌ من صوتِ النّارِ؛ فالنّار يكونُ لها صوتٌ بكثرةِ ما تلتهمه في جوفها منَ المحروقين بها[4].

بلاغةُ الكنايةِ في التّركيبِ:

انفعالُ النّارِ بالغيظِ مَلزومٌ عنِ انفعالِ أهلِها بالاصطراخِ

في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ على اعتبار أنّ الصّوت للنّار؛

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 531.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 119.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 531.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 202.

فالتّركيبُ كنايةٌ عن لازمِه، وهو صوت المُعذَّبين فيها، فإذا كانتِ النّارُ نفسُها لها صوتٌ بالغيظ والزّفير؛ فكيف بحال أهلها الغائبين في دركاتِها؟!

المجازُ العقليُّ في إسنادِ الصّوت للنّارِ:

النّارُ تَـؤزّ أهلَها إلى استغاثاتٍ لا تَهدأ

معنى قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾: سمعوا لها صوتَ تغيّظٍ وصوتَ زفيرٍ؛ فأُسنِد الصّوتُ للنّار، كأنّه قيل: سمعوا صوتَ النّار، فأُسنِد الفِعل لغير مفعوله الحقيقيّ؛ لأنّ صوتَ التّغيظِ والزّفيرِ الذي سمعوه هو صوتُ المُعذَّبين في النّار، لا صوتُ النّارِ نفسِها، بدليل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦﴾ [هود: 106]، ولكن لمّا كانت النّار هي السّبب في ذلك؛ أُسنِد الفِعلُ إليها، وجُعِلَت كأنّها هي التي تُصوِّت[1].

بلاغةُ الاحتباكِ واللّفِّ والنّشرِ في النّظمِ:

الـــوضـــوحُ وحصولُ الإفهامِ مـــن دواعـــي الحذفِ

في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ حُذِفَ أوّلُ الكلامِ إيجازًا؛ لدلالةِ آخرِه عليه، على سبيلِ الاحتباكِ (الحذف التّقابليّ)؛ استنطاقًا لِوَعْيِ السّامعِ، واستنهاضًا لِفَهْمِه في استنباطِ المحذوفِ، والتّقدير: (رأوا لها تغيّظًا وسمعوا لها زفيرًا)، أو يُجْعَل تقديرُ المحذوفِ على طريقةِ اللَّفِّ والنّشرِ المُرتَّب؛ أيْ: (رأَوا وسمعوا لها تغيّظًا وزفيرًا)؛ فالرؤية للتّغيُّظ، والسّمعُ للزّفيرِ؛ لأنّ للزّفيرِ صوتًا فيُسمَع، وللتّغيّظ هيئةً فيُرَى[2].

بلاغةُ المجازِ المُرسلِ في التّعبيرِ بالتّغيُّظِ:

لا سُكونَ في النّارِ ولا قَرارَ

بإجراءِ النّظمِ على ظاهرِه في إسنادِ السّمعِ إلى التّغيّظِ في قولِه: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ يكونُ في إطلاق لفظِ التّغيّظ مجازٌ مُرسلٌ، علاقتُه اللّازميّة، فأطلَقَ اللّازمَ وهو التّغيّظُ، وأراد المَلزومَ وهو

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 531.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 125.

احتدامُ أجرامِ النّارِ وصوتُ غليانِها وفَوَرانِها؛ كأنّه قيل: سمعوا صوتَ غليانِها منَ الغيظِ، أو سمعوا صوتَ غليانِ التّغيُّظِ، ولك أن تجعل التّغيُّظ هو المَلزوم، والغَليان والاضطرامُ لازمٌ عنه، كمَنْ يغتاظ فيَهيجُ ويضطربُ، ويكون المَجازُ المُرسلُ علاقتُه المَلزوميَّة، ويصِحّ أن تكون العلاقةُ المُسبَّبيَّة، على اعتبار أنَّه أطلَقَ التّغيّظَ على الغليان؛ لأنّ الغليان هو سببُ التّغيُّظ، فأَطلَق المُسبَّب وأراد السَّبَب[1].

دلالةُ استعارةِ التّغيّظِ والزّفيرِ للنّارِ:

الغَيظُ والغليانُ قرينان

في إثباتِ التّغيُّظ والزّفيرِ للنّارِ استعارةٌ مَكنيّةٌ؛ إذْ شَبَّهَ صوتَ غليانِها بصوتِ المُغتاظِ وزفيرِه، وطوى ذِكْر المُشبَّه به، ورَمَزَ إليه بشيءٍ من لوازِمِه؛ وهو الغيظُ والزّفير، وهو مرشّح الاستعارة[2].

توجيهُ الاستعارةِ التّمثيليَّة في التّركيبِ:

إذا حضرَ الغيظُ ولَّى الخيرُ

ويصحُّ إجراءُ التّركيبِ في قولِه تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ على الاستعارة التّمثيليّة، بتشبيهِ أحوالِ النّارِ واضطرامِها على مَن فيها، بحالِ نافرٍ مُغتاظٍ ينفُثُ زفَراتِ الغضبِ[3].

بلاغةُ التّشبيهِ البليغِ في التّركيبِ:

يتأذّى أهلُ النّار مـنَ الـنّـار قبلَ دخولِهم فيها

في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ على جَعْل التّغيُّظ والزَّفير معمولَيْن للفِعْل: ﴿سَمِعُواْ﴾ من غير تقدير محذوفٍ يختصّ بالتّغيُّظ، كما سبق في وجه الاحتباك، فعلى هذا التّوجيه يكون في التّركيب تشبيهًا بليغًا؛ أيْ: سمعوا صوتًا تغيّظًا وزفيرًا؛ أيْ: صوتًا كالتّغيُّظ، وصوتًا كالزّفير، فحُذِف وجهُ الشّبهِ وأداةُ التّشبيه، والمقصود: الإخبارُ بأنّهم يسمعون وعيدًا شديدًا كصوت المُغتاظ

(1) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 4/ 10، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 202، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 438، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 24.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 119.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 31.

حين يصيح، وكصوت المُهتاجِ حين يَزْفِر من جَهْد التّوعُّد لِخصمِه[1]، فكأنّ "السّعير شُبِّهتْ بالإنسان الذي يُرْمَى ويتغيّظُ ويَزْفرُ، ويُحِسّ ويَشْعرُ، إذا رأى شخصًا يريدُ عقابَه، فإنّه يتغيَّظ ويزفرُ؛ والمعنى: أنّ السّعير تستعِدّ وتتهيَّأ هائجةً لَمجيء العُصاةِ إليها، ويسمعون ما يُشْبِه التّغيُّظَ والزّفير من مكانٍ بعيدٍ"[2].

بلاغةُ التّضمينِ في العاملِ:

يصحّ إجراءُ العاملِ في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ على تضمينه معنًى يُناسِب لَفْظَي التّغيّظ والزّفير، فيُضَمَّن السّماعُ معنى الإدراكِ؛ أيْ: أدركوا لها تغيُّظًا وزفيرًا[3]، وفائدة التّضمين: إيقاعُ الكلام موجزًا على غير تقديرٍ لمحذوفٍ؛ تفاديًا لكثرة التّصرُّف في النّظم.

من أعمالِ التّضمينِ وقايةُ النّظمِ من تصرّفاتِ الحذفِ

وقد يُراد بالتّضمينِ جِماعُ المعنيَيْن، فهو سماعٌ بإدراكٍ، وتحرير ذلك أنّ استعمال الفعل ﴿سَمِعُواْ﴾ في هذا الموضع، فيه قصدٌ إلى معنًى مُعيَّن لا يتأتّى من دون ذِكْره، إلّا أنّ استعمالَه مع لَفْظَيْن يناسبان فعلَ الإدراك ضربٌ منَ التَّوسُّع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومُؤدّاهُ أنّ للفعل دلالةَ أصلٍ معناه، وبِتَطلُّب السّياقِ فعلًا آخَرَ يُصبحُ للمعادلة وجهان متكاملان؛ إذ يُؤدّي الفعلُ أصلَ معناه بالتّصريح به، ويقتضي معنى الفعل الذي يطلبه بالتّضمين، فكأنّ سماعَهم هاهنا سماعٌ بإدراكٍ، وهو أشدُّ وقعًا من مُجَرَّدِ السّمعِ.

السّماعُ بإدراكٍ أشدُّ وقعًا على نفسِ المُعذَّبِ من مُجرّدِ السَّمعِ

دلالةُ بناء ﴿تَغَيُّظًا﴾ على صيغةِ (تَفَعُّل):

مجيء المصدر في قوله: ﴿تَغَيُّظًا﴾ على بناء (تفعُّل) يدلّ على المطاوعة؛ كأنّهم أغاظوا النّارَ أو خزَنَتَها لمّا لاحوا لهما، فتغيّظا، كما يُقال: كسرتُه فتَكَسَّر تكسُّرًا، ويدلُّ على إظهار الفعل، فالغيظُ

حركةُ الانفعالاتِ متدرّجةٌ متباطِئَةٌ، تبدأ هَشّةً، ثمّ تقوى، ثمّ تشتدُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 333.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5256.
(3) السّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 461.

حاصلٌ؛ لكنّه ظَهَرَ ولم ينكتِم؛ فصار تغيُّظًا، ويدلّ على الإظهار قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: 8]، فإنّ تميُّزَها هو انفصالُها وتقطّعُ أجزائِها، وهو وصفٌ ظاهريٌّ، وهو ناشئٌ منَ الغَيظ الوجدانيّ؛ أيْ: إنّ تميُّزها يعني ظهورَ هذا الغَيظِ وخروجَه على هيئة التّميُّز والانصداع، وهذا يعني إظهارَ الغَيظِ.

في التّدرُّجِ في حصولِ الغيظِ مبالغةٌ في وعيدِهِم

ويدلُّ التّغيّظُ على التّدرُّج في الحصول؛ فالغَيظ انفعالٌ نفسيٌّ يطرأُ لحصول ما يُحرّض عليه، ويظهر لاطّراد دوافعه واستمرار أسبابه، وحركةُ الانفعالات مُتدرِّجةٌ مُتباطئةٌ، تبدأ هشّةً، ثمّ تقوى، ثمّ تشتدّ؛ فهي مُتنامية مُتصاعِدةٌ مُتراكمة، ولا تبدأ شديدةً أبدًا، ودلالةُ التّغيّظ على التّدرّج له مناسبةٌ بديعة في النّظم؛ وهو المبالغةُ في وعيدهم، فإنّه قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾، فهي تتهيّج بالغيظ بمُجرّد رؤيتهم منَ المكان البعيد، فكيف إذا اقتربوا منها؟! فإنّها تزداد تهيُّجًا وغيظًا! فالتّدرّج في الغيظِ واضحٌ بين بُعدِهم عنها واقترابِهم منها، ويدلّ على التّدرّج قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾؛ أيْ: تتقطّع وتتصَدّع، والصَّدعُ يبدأ ساريًا مُتمَدِّدًا في أنحاء الشَّيء أوّلًا، ثمّ يتفتّت وينفصل، وهذا تدرّج.

يستحقُّ الكافرُ العنيدُ أنْ يواجَهَ بتغيّظٍ شديدٍ قويٍّ

ويدلّ أيضًا وزن (تفعّل) على التّكلّف وإيقاعِ الفعل بشِدّةٍ وقوّة؛ لأنّ مَن تكلّف شيئًا قاوَمَ في فعلِه واشتدّ في إيقاعه[1]، فالتّغيّظ يدلّ بهذا الوزن على أشدّ درجاتِ الغَيظ، وأنّه غيظٌ شديدٌ يواجَه به الكافرُ العنيد، ويدلّ أيضًا بلازم هذه الدّلالاتِ السّابقةِ على التّحوّلِ والصّيرورةِ، وهي دلالةٌ مصاحبةٌ لكلّ ما سبقَ.

دلالةُ بناء (فعيل) في ﴿وَزَفِيرًا﴾:

الزّفيرُ من أماراتِ الحياةِ وثوابتِ الخِلْقَةِ

صيغةُ (فعيل) في قوله: ﴿وَزَفِيرًا﴾ صفةٌ مُشبّهةٌ تدلُّ على ما هو سجيّةٌ مُطَّردة، أو كالخِلْقة الثّابتة، فإنّ الزّفير من خصائص

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 333.

الأحياء ومن ثوابت الخِلْقَة فيهم، فصيغة (فعيل) دالَّةٌ على استدامة الوصف.

براعةُ المناسبةِ في توالي التّغيّظِ والزّفيرِ بعد السّعيرِ:

التّجاورُ يُؤذِنُ بمُراعاةِ المناسبةِ وتَمتينِ السَّبْكِ

في جعل التّغيّظ والزّفير من صفات النّار، وموالاةِ هذيْن الوصفيْن بعد لفظ (السّعير) في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: 11] مناسبةٌ بديعةٌ في السّبْكِ والتّجاور بينهما، فإنّ السّعير هو صفةُ شِدَّةٍ في النّار، توصَفُ به عند زيادة اشتعالها، وتصاعدِ لهَبِها، واكتمالِ جِرمِها في الإشراق والإحراق، والتّغيّظُ والزّفيرُ وصفٌ مُطابق لهذا الاستعار؛ فمعنى أنّها صارت مسعورةً في حرقِها واشتعالِها؛ يعني: أنّها تغلي وتهيج؛ فهي كالمنفعِل بالغَيظ الذي بلغ أقصى حَدٍّ في الغضب والاهتياج[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّغيّظ والزّفير:

التّغيُّظ: انكتامٌ وانــقــبــاضٌ، والـزّفـيرُ: إخـراجٌ وتنفيسٌ

التّغيّظ: إظهارُ الغَيظ، والغيظُ: هو الغضب الشّديد الذي تفور منه حرارةُ القلب[2]، والزّفير: النَّفس المُتردّد في مجاري الصّدر، يُخرجِه الإنسانُ ويطرحه، واستُعير للغَمّ المنفوثِ خارجًا بعدما كان مُنكتِمًا في النّفْس؛ تشبيهًا له بالنَّفَس الذي ينفثُه الإنسانُ ويُخرجُه بعدما كان داخلَ صدرِه[3]، والعلاقة بينَ التّغيُّظ والزّفير علاقةُ مقابَلَة، فأَصْلُ التّغيّظ: انكتامٌ وانقباضٌ، وأصلُ الزّفيرِ: تنفيسٌ وإخراجٌ، وهذا يشرح المناسبةَ البديعة في اقترانهما وتواليهما في قوله: ﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، فالتغيُّظ هو ظهور ملامح هذا الانكتام والضّغط الشّديد منَ الغضب والاعتلاج، غيرَ أنّه ما زال محبوسًا،

(1) السَّمين، عُمدةُ الحُفَّاظ: (سعر).
(2) الرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (غيظ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زفر).

والزّفير هو فكّ هذا الانكتام بالتّنفيس والنّفْث والتّخلّص، فالزّفير هو فُرجَةُ التّغيُّظ؛ ولذا جاء بعدَه، ولا يخفى حينَئِذٍ كونُ الزّفيرِ خُلاصةَ العذابِ، وكنايةً عن تصاعد شِدّته وانبعاث حُمَمِه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»